رمضانيات

حقيقة الصوم

ليس المقصود بالصوم أن يمتنع المكلف عن المفطرات التى ذكرناها فى الحديث السابق ، فان هذا الامتناع ماهو الا الجزء المادى من هذه العبادة الشريفة ، بل المقصود بالصوم هو التقوى على حقيقتها ، واتقاء تناول هذه المفطرات فى شهر رمضان أن هو الا طريق ليتعلم الانسان ضبط نفسه عن حدود الله سبحانه ، واتقاء محارمه ، والا لم يكن للصائم حظ من صومه الا الجوع والعطش .

فترك المفطرات يسقط الامر بالكف عنها وبالتالى يحقق الاجزاء المسقط للاعادة والقضاء اذا لم يقترن بالريادة لكن هذا ليس هو المقصود النهائى للمشرع من وراء الامر بالصوم ، بل يريد الله سبحانه منا أن نتعلم كيف نتقيه ، وتقوى الله لاتقوم الا بركنين أحدهما الايمان بالله وبما شرع من أحكام ومارتب من جزاء وثانيهما الارادة الجدية فى الاعتراف بالعبودية .

والايمان بالله أنواع كثيرة بتعدد أسبابه وطرائقه فهناك ايمان المقلدة الذين لايعرفون من حقيق العقيدة الا ما تلقفوه من أفواه آبائهم فهم لهم تابعون ، ومن الايمان ايمان الفلاسفة الذى يركز على العقل دون أن يخالط القلب ، ومنه ايمان المتصوفة القائم على العاطفة دون أن يعتمد البرهان ، ومن الايمان ايمان الصديقين القائم على البرهان المخالط للعقل والوجدان ، ولا بأس أن نفصل هذه الانواع ولو على نحو الايجاز والاختصار :

ايمان المقلدين : كثير من الناس يعيشون فى هذه الحياة من دون أن تكون لهم نظرتهم الخاصة الى الكون والحياة وموجد هذا الكون وهذه الحياة ، بل هم أرقاء مأسورون فى دائرة ما تلقفوه من أفواه أبائهم ومعلميهم فهم مصيبون باصابة هؤلاء الاباء والاساتذة مخطئون بخطأهم يدورون معهم حيث داروا لايعتمدون على علم ولا يقيمون وزنا لبرهان ومن علائم هؤلاء أن ينظروا الى الحق على طريق الرجال ولا يقيسون الرجال بالحق ، فاذا صدمهم البرهان ولم يجدوا مخرجا عنه تأولوه بالمغالطات الوهمية مثل مجافاته لما عليه السلف ومخالفته لما عليه الاباء والاجداد ومثلهم الاسمى (انا وجدنا اباءنا على أمة ونحن على اثارهم مقتدون) فايمان أحدهم كريشة فى مهب الريح ، أو هو كذبالة ضعيفة فى ليلة مظلمة ، ولا شك أن التقليد فى أصول العقائد مذموم فى القرآن الكريم فقد وصف سبحانه أهل الجاهلية ورفضهم النظر الى البراهين تمسكا بما عليه أباؤهم ورد عليهم بقوله (قل أولو كان أباؤهم يعقلون شيئا ولا يهتدون) وعنفهم فى اية أخرى بقوله سبحانه (مالهم به من علم ولا لابائهم)

بقلم : الشيخ سليمان المدنى

لو كان التقليد واتباع الاباء فى أخذ أصول الاعتقاد طريقا صحيحا ومعذرا لما صح أن يعنفوا على اتباعه أو يؤاخذوا اذا أخطأوا بسببه ، ولا فرق فى قبح هذا الطريق وعدم صحته سواء أفضى الى حق أو باطل فان الذم فى القرآن الكريم انما وقع على نفس التقليد واتباع الاباء والاجداد فى معرفة أصول الدين .

ومن أضرار التقليد فى أصول الاعتقاد أنه يحجب عن عقل الانسان النظر الى الاشياء ويحجب عنه نعمة البحث ومعرفة الحقائق وهى غاية من الغايات الرئيسية التى جاء الاسلام ليحققها للنوع البشرى وحث عليها فى القرآن حثا كثيرا .

سنتناول هذه النقطة بصورة اكثر توسعا فى العدد القادم) .

● ايمان الفلاسفة : أقصد من الناس من يؤمن بالله ايمانا عقليا جامدا ، فهو ايمان فى حدود العقل لايتف[illegible] مع النفس ولا ي[illegible] ، ومن أجل ذلك لايردع صاحبه عن معصية ولا يحثه على طاعة ، فهو أشبه باللقلقة اللسانية منه بالتصديق ، وبعض هؤلاء آمن بالله سبحانه لان الادلة ملأت عليه عقله ثم سيطرت الشهوات على نفسه وعجز عن خوض ميدان النضال النفسى كسلا فذهب يتشدق بايمانه بالله دون أن يعلم أن هذا الايمان يفرض عليه الاعتراف بالعبودية لله وهذا هو الفرق بين المتدين والفيلسوف فالفيلسوف يؤمن بالله باعتباره علة لهذا الكون لان عقله يفرض عليه بألا يصدق بأن الوجود الممكن يترجح وجوده على عدمه من دون مرجح ، ثم بعد ذلك يتيهون فى بيداء الضلال حتى يصل الامر بأحدهم (برجسون) فيدعى أن الله هو الزمن الحقيقى وهو فى أعماق أعماقنا انه فى الانا الحقيقية ، وبعضهم يؤمن بالله لانه لايقدر على نفى وجوده فان النفى كالاثبات فى هذه المسالة يحتاج الى دليل وبرهان فيسلم بانه موجود ولكن الشهوات المسيطرة

على قلبه والمانعة له من النظر المنطقى تدفعه للتمرد على هذا الايمان فيصرح بانه سوف يعصيه ولن يطيعه (سارتر - الذباب) والايمان الفلسفى يختلف عن الايمان الدينى بانه يزيد الانسان ضياعا وشعورا بالغثيان ولا يحقق الاهداف النفسية والخلقية والتشريعية للانسان .

● ايمان المتصوفة وقسم من الناس آمن بالله ولكنه لم يستفد من هذا الايمان لمزجه اياه بالاوهام والخزعبلات والرؤى المرضية الناتجة عن التعبد بطرق تتنافى والايمان بالله كالخلوات وتعذيب الجسم وفعل الحركات العنيفة حتى اذا ادت به هذه الاعمال الموروثة عن الوثنيين المتوحشين الى الانهيار العصبى ادعى الوصول الى الحقيقة وانه قد استجلى سر الكون بأسره ومن هؤلاء المتصوفة من احب فى حياته ثم أخفق فى حبه فذهب يتغزل فى محبوبته ويكنى عنها بالله تضليلا للناس عن حقيقته فيعتقد فيه البسطاء والسذج بأنه واله فى حب الله

ولو كان كما يدعى لعبد الله من حيث أمره وتقرب اليه بالطريقة التى سنها لعباده ، ومن المتصوفة اقوام بلغ بهم الهوس حتى ادعوا بوحدة الموجودات كلها وان الموجودات كلها شىء واحد وان الله هو الكون والكون هو الله تعالى الله عما يدعون فقادهم ايمانهم الى الكفر وتوحيدهم الى الالحاد فأصبحوا من حزب الشيطان وهم لايشعرون ومن المتصوفة من بلغ به الغرور والغطرسة فادعى بانه أفضل من انبياء الله ورسله وذلك لأن الانبياء كما يقول هؤلاء المتغطرسون بعد أن قطعوا رحلتهم الى الله عادوا فى رحلة ثانية الى خلقه أما هم فلم يقوموا الا برحلة واحدة من الخلق الى الحق فلما وصلوه ذابوا فيه واندمجوا به وفنى وجودهم الخاص فى وجوده حتى قال أشدهم عتيا وهو ابن العربى (ليس فى جبتى الا الله) فادعى الربوبية وأنشد وهو على خشبة الصلب :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فاذا شاهدته شاهدتنى
واذا شاهدتنى شاهدتنا

وهذه المرتبة من الكفر والزندقة هى مرتبة فرعون ومع ذلك فهو يدعى الايمان بل يكفر من خالفه ومن رد عليه ولو تصفحت كتبه لوجدتها مليئة بشتم أعاظم المؤمنين وليس ايمان المتصوفة هو الايمان المطلوب فى الدين فانه يقود الى أحد احتمالين اما الوصول الى الكفر عن طريق الاعتقاد بوحدة الوجود وطريق الاعتقاد بالاندماج بالله وادعاء الربوبية أو يعود الى ترك العمل والتسول بالكف والعيش عالة على الناس ولو اتبع الناس هذه الطريقة لفنيت الحضارة ولا انهدمت المجتمعات .

● ايمان الصديقين : فالايمان المطلوب الذى هو الركن فى تقوى الله هو الايمان به سبحانه عن دليل وبرهان ونظر بحسب قابلية الشخص وألا يكون عن تقليد الاباء وأن يحكم فكره وعقله فيما ورده من سلفه وأوائله فلا يقبل على الله سبحانه ما يتنافى مع الوهيته من دعوى الابنية له أو الزوجية أوالحلول فى جسم أو أن يدعى بأن له جسما فانه سبحانه وصف نفسه متحدثا فقال جل ذكره (ليس كمثله شىء) وكذلك عليه أن يتلقى سائر الاصول الاعتقادية والضروريات الدينية من محكم الكتاب ومتوافر السنة فلا يتعصب لما وجد عليه قومه وان كان مخالفا لنص محكم فى كتاب الله أو سنة متوافرة رواها قومه وغيرهم ثم أهمل أهله العمل بها وكذلك فان المؤمن ايمانا حقيقيا لايغلو فى دينه فيكفر كل من خالف رأيه لمجرد اجتهاد اجتهده أو فهم حصل عنده . ثم يعبد الله سبحانه بالطريقة التى أراد فلا يخترع لنفسه طريقة للعبادة ثم يدعى أنها توصله الى الله وتقربه منه .

أما الركن الثانى الذى تقوم عليه التقوى فهو الارادة الجدية فى الاعتراف بالعبودية لله سبحانه . فبعد أن يحصل للانسان الايمان بالله بالطريقة التى ذكرناها فان عليه أن يعمل ارادته فيما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك وأن تكون هذه الارادة مبصرة بنور الله سبحانه مهتدية بهديه فهو يأخذ الدين على أنه عبد خاضع لله ويعمل له ولن تتحقق له هذه الارادة الا بعد نضال طويل وجهاد شاق مع الشهوات والميول فكثير ممن لهم عقائد صحيحة تراهم ينحرفون مع شهواتهم وميولهم وأهوائهم فهم يأخذون من الدين مالا يتنافى مع أغراضهم وأهوائهم وأما ما يتنافى منه مع هذه الميول فيتركونه وراءهم ، هؤلاء الناس لم يتحرروا من أسر الشهوات وقيود الاهواء فليست لهم ارادة جدية فى الاعتراف لله بالعبودية ومعنى ذلك أن ايمانهم لم يصل بعد الى كل موضع من أعماق نفوسهم ، بل لاتزال فى نفوسهم مواضع مظلمة لما تشرق عليها شمس الهداية ولم يخالطها نور الايمان ، وتفاوت الناس فى التقوى - بعد صحة العقيدة يرجع لهذا السبب فكلما تحررت ارادة الفرد من غير الرواسب الشهوانية والغرائزية أكثر كلما اظهر الاعتراف بعبوديته لله سبحانه بدرجة أرقى . ولا شك أن المواظبة على الطاعات وفعل الحسنات يساعد الانسان فى صراعه ضد رواسبه ويسارع تخليصه من غير استعباد هواه ، ومن أهم ما يمرن العبد على تقوية ارادته وتحريرها من أسر الشهوات هو الصوم

ولكى يتحقق المعنى الملائم للصوم فان على الانسان أن يكف جوارحه فى هذا الشهر عن معاصى الله كالغيبة والنميمة واستماع الملاهى والغناء وأن يدرب نفسه على التخلص من رذيلة الشح فيتعلم من الم الجوع والعطش كيف يواسى المحتاجين ويعين المستضعفين . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) صدق الله العظيم .